# ضيوف الريف فى المدينة

أكثر سكان المدن — ولا سيما الموظفون — ذوو قرابة فى الريف ، وكثيرا ما تكون للأقارب الريفيين مصالح فى المدينة ، وكثيرا ما يقصدونها كذلك لمجرد زيارة الأضرحة أو لقضاء أيام فى التفرج بمناظر المدينة وملاهيها ، وفى جميع الحالات يقع عبء هذه الزيارات على كاهل أقربائهم أو أصدقائهم من سكان المدينة ، ويتضرر هؤلاء سرا أو جهرا وينظرون إلى هؤلاء الزائرين نظر المتأفف المستثقل ، وهم محقون .

ذلك أن معظم سكان المدن ممن لهم قرابة بالريف موظفون متوسطو الحال أو من صغار الموظفين ، ومواردهم المالية وطبيعة الحياة فى المدينة تحتمان عليهم أن يسكنوا فى منازل مأجورة ، وهم يختارونها على حسب حاجتهم بلا توسع ، لأن كل توسع فى حجرات المنزل له مقابل من الايجار . ثم هم يؤثثونها فى حدود الضرورة كذلك ، لأن للأثاث فى المدينة ثمنا باهظا ولا ضرورة للاستكثار منه بلا حاجة اليه ، لأن كثرته تتطلب حجرات أكثر أو أكبر وتكلفهم ثمنه وزيادة فى إيجار المنزل الذى يضمونه فيه . ثم هم يضمون هذا الأثاث والفراش على نظام خاص حسب عدد أفراد الأسرة وأعمارهم وظروفهم ، فحجرة للاستقبال وحجرة للمكتب وحجرة للمائدة وحجرة أو حجرتان أو عدة حجرات للنوم حسب عدد الأسرة ..... وهكذا .

أما من حيث نظام المعيشة فإن طبيعة الحياة فى المدينة تقيدهم بنظم معينة ، فهم يعدون فى أول كل شهر ما يحتاج اليه البيت من ضروريات ، وفيهم من لا تسمح له موارده بإعداد مطلوبات الشهر كلها فيستحضرها كل أسبوع وربما كل يوم . ثم إن فداحة النفقات المعيشية تحتم عليهم أن يكون ما يعدونه من الطعام للأكلة الواحدة على قدر ما يحتاجون اليه بلا زيادة لا ضرورة لها ولا معنى .

هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن طبيعة أعمالهم تجعلهم مقيدين بمواعيد خاصة فى الصباح وربما فى المساء ، إن لم يكن للعمل فلقضاء مصالح أخرى ولمقابلات خاصة ومواعيد تقتضيها حياتهم فى المدينة ، أو لتلبية هواية خاصة تعينهم على الإجهاد فى العمل وترويح أعصابهم من ضجة المدينة وحياتها الصناعية المتكلفة .

كل هذه الملابسات تجعل الفرق بين حياتهم وحياة أقاربهم وأصدقائهم فى الريف كبيرا وتجعلهم غير مستعدين لاستقبال هؤلاء الأقارب والأصدقاء إلا بمقدار ، وفى حدود معينة يستعدون لها استعدادا خاصا .

غير أن أهل الريف لايحسبون حسابا لهذا كله، فإن يخطر لهم أن يهبطوا المدينة لسبب من الأسباب ولمصلحة ملحة أوللزيارةوالرياضة حتى يقصدوا توا إلى منازل أقاربهم وأصدقائهم فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ، دون أن يكلفوا أنفسهم مئونة إخطارهم حتى برسالة ماداموا يعرفون المنزل، ثم يعطون لأنفسهم الحق كله فى أن يأكلوا ويناموا ويمسوا ويصبحوا فى دار مضيفهم ، وأن يقيدوه بقضاء مصالحهم ومرافقتهم فى زياراتهم ونزهاتهم، وقديطول أمر هذا العناء أياما وأسابيع بل شهورا فى بعض الأحيان كما وقع لى ولكثير من الإخوان !

والضيوف الكرماء فى هـذه الضيافات لايشعرون مطلقا بأنهم ضايقوا مضيفهم فى شىء لا فى تكاليف الحياة اليومية التى قد يضطر لمضاعفتها حرصا على مظهره ومركزه فى بلده وعلى رضاء ضيوفه كذلك ولو حمله هذا ما لايطيق ، ولا فى حجرات الدار وحرية زوجه وأولاده وكثيرا ما تقضى التقاليد باحتجاب النساء فى الدار عن الضيوف ولا يخفى مافى هذا من حرج وتضييق، ولا فى نظام المنزل ونظافته التى لايعنى بها هؤلاء الضيوف الكرام لأنهم يتصرفون فى دورهم الريفية بلا تحرج ولا مراعاة لعادات خاصة من النظافة والترتيب، ولا فى أوقات المضيف التى تصبح ملكا لهم مع حاجة صاحبها اليها لتدبير شؤون معاشه أولرياضته أولمواعيده الخاصة .

وهناك ما هو أهم من هذا جميعه ، وهو أن زوجة المضيف قد تكون من المدينة ، ولم تعتـد بطبيعة الحال الفوضى التى تبدو فى تصرفات الضيوف الريفيين وعدم مراعاتهم للنظافة فيحرج زوجها بينها وبين أقاربه وأصدقائه ، وقد لاتكون هى من ضبط النفس بحيث تسكت وتراعى شعوره فتقع بينهما المشادات التى تؤدى إلى أسوأ النتائج .

وعذر أهل الريف فى هذا التصرف واضح ، ولكن ماذنب ساكن المدينة المسكين ؟ إن هؤلاء الريفيين يقيسونه بأنفسهم، ويقيسون حياته بحياتهم ، فهم لايكرثهم نزول الأضياف بهم لأن فى دورهم متسعا للجميع، ذلك أن هذه الدور ملكهم وتكاليف البناء ضئيلة، "والدوار" يتسع للكثيرين . أما الأثاث والفراش فلا يهمهم من أمرهما شىء طالما أنهما من البساطة والرخص بحيث لايكلفانهم كثيرا ، على أنه فى استطاعة أى قروى ينزل بداره ضيـوف وهو على غير استعداد أن يستعير من أقاربه أو أصحابه بالقرية أثاثا وفراشا بكل بساطة وسهولة وكذلك الأمر فى الطعام، فالحياة فى القرية رخيصة ومعظم مطالبها مخزون فى الدار للعام كله وهناك نظام متبع فى كثير من القرى، وهو تعاون الأقارب والأصـدقاء فيما بينهم على أمر الضيوف الذى ينزلون بأحدهم ، فهم عند فلان فى الإفطار وعند فلان فى الغداء وعند فلان فى العشاء ، بحيث لايتكلف مضيفهم الأصيل إلا بعض الوجبات ! أما الوقت فلا قيمة له فى الريف ، بل ربما عدّ الضيف ذا جميل على مضيفه لأنه يسّر له قتـل بعض الوقت فى التسلية !

فالأمر مختلف جدا بين القرية والمدينة فى هذا كله ، ولكن ضيوف الريف لا يفطنون لهذا الاختلاف ، وهم معذورون لهذا لجهلهم وعدم تجربتهم حياة المدن ، ولهذا يحاسبون المدنيين بحسابهم هم ، ويعدون عليهم كل تقصير فى توفير جميع أسباب الراحة لهم ، ثم يطلقون ألسنتهم فيهم بالقدح والزراية ، إذا هبطوا عليهم بلا إنذار سابق فى مواعيد الطعام فلم يجدوا لديهم ما يكفى للضيوف ، أو إذا كان الأثاث والفراش غير كاملين خصوصا إذا كان عدد الضيوف كبيرا ، والويل كل الويل إذا لم يضع المضيف وقته كله تحت تصرفهم ولم يرافقهم فى قضاء مصالحهم وفى التافه من زياراتهم ونزهاتهم . فهو إذن مقصر كل التقصير مهما قدم لهم من طعام وشراب ومعاذير !

أذكر أن أحد هؤلاء الضيوف الكرام هبط علىّ فى ليلة امتحانى فى الدبلوم النهائية لدراستى يرجونى فى أن أتوسط له لإخراج ابنه من الجيش بعد لياقته الطبية نظرا لظروف خاصة . فأفهمته أننى أتهيأ صباحا للامتحان ، وأننى مع هذا سأكتب مذكرة بشأن ابنه وأرسل بها إلى دوى الشأن مع توصية خاصة لكبير أعرفه منهم ..... أقول أفهمته ولكن الواقع أننى حاولت هذا فلم أفلح ، لأن الامتحان — كما يقول — لا ينهض عذرا لى فى هذا التقصير ويمكن تأجيله ، أما هذا الأمر الهام فتأجيله ينتج له ضررا محققا وسمعة سيئة بين أهل البلد لفشله فى إتمامه . ولأن المرحوم والدى كان صديقه صداقة قوية ، فيجب أن أحرص على مصلحة صديق والدى وإلا كنت عاقا . وقد حدثنى صديق أنه كان مرشحا للبرلمان ، وفى صبيحة الانتخاب كان أحد الريفيين يطلب منه العمل على توظيف ابنه ، والسفر إلى القاهرة لذلك . أما الانتخاب فأصوات الناخبين يتعهد هو بها فى يوم آخر !

وليس جميع أصحاب المصالح الريفيين من طراز صاحبينا ، ولكنهم لا يطلبون أقل مما يطلبان ، وإن لم يكونوا صريحين مثلهما ، غير أنهم يحفظونها فى أنفسهم إلى أن يعودوا فيطلقوا ألسنتهم بالقدح والهجاء !

وإذا كان لأهل الريف عذر فى تصرفهم على هذا النحو ، فلا عذر لجماعة من المتعلمين العائشين فى المدن يتصرفون هكذا حينما تقتضيهم الظروف السفر إلى مدن أخرى لهم فيها أقارب أو أصدقاء ، مع علمهم بأن هناك فنادق ومطاعم ومقاهى توفر لهم كل ما يطلبون وتوفر على أقاربهم وأصدقائهم ذلك العنت الشديد .

وهؤلاء وهؤلاء فى حاجة إلى دعاية قوية تهديهم إلى التصرف المهذب الواجب عليهم حين يهبطون المدينة لسبب من الأسباب ، وعلى المتعلمين فى القرية عبء هذه الدعاية ، فهم الذين جربوا حياة المدن ، وهم الذين تصل إلى أيديهم هذه المجلة وسواها ، وهم الذين يستطيعون أن يفهموا أهل الريف ما يقاسى سكان المدينة من زياراتهم الكثيرة وضيافاتهم الثقيلة .